مذهب الملكات العقلية

للاستاذ محمد مظهر سعيد بك

أستاذ علم النفس

بمعهد التربية وكلية أصول الدين

يسرنا أن نقدم لقراء المعرفة ، هذا البحث الفلسفى السيكولوجى ، الذى تفضل العالم البحاثة الاستاذ مظهر بتقديمه لقراء « المعرفة » .

وسيقدر القراء تمام التقدير مقدرة الاستاذ العلمية وقوته البيانية ، حينما يعلمون أنه حذف الشىء الكثير من الاصطلاحات الدقيقة والنقط العلمية العميقة الجافة التى قد لا يستسيغها جمهرة القراء العاديين ، فأربى على الغاية فى بسطه بغير ثوب العلم الجاف ، مما لا يتوفر للكثيرين .

على أن هذا ليس بالكثير على الاستاذ مظهر بك صاحب المباحث العلمية الجليلة التى قدرها له علماء الغرب أجل تقدير فاختاروه لأجلها عضواً فى المجمع العلمى البريطانى والجمعية البريطانية السيكولوجية . وتلك منزلة تصعب على من رامها وتطول .

وجدير بنا فى هذا المقام أن نشير الى أن الاستاذ من خريجى المعلمين العليا ، وحائز لبكالوريوس العلوم والماجستير (الاستاذية) في علم النفس والتربية من انجلترا . وهو أول مصرى حاز هذه الدرجة ؟ المحرر

---

(١) أصله :

عنى الفلاسفة الأقدمون بعض العناية بدراسة العمليات العقلية البسيطة الظاهرة ، ولكنهم لم يوفقوا لأكثر من ملاحظة بعض الفوارق المميزة لأنواع الحياة العقلية المتعددة ، والطرق التى يتصل بها العقل بالمؤثرات الخارجية . ولما أعيتهم الحيل فى تفسير طبيعة هذه الظواهر تفسيراً علميا تفصيليا ، اكتفوا — لما كان فيهم من نزعة للتبويب والتقسيم — بفرض عدة قوى عقلية

اعتبروها مسببة لهذه الظواهر أو على الأقل تساعد على إحداثها ، وسموها ملكات (أو قوى كامنة موروثة) وألحقوا بها كل عمليات الأدراك والشعور الأولية البسيطة المعروفة لديهم وقتئذ . على أنهم فى الواقع لم يقصدوا بكلمة ملكة سوى التعبير عن حالات النفس الخاصة عند ما تتأثر بالمؤثرات الخارجية عن طريق الحواس ـ و بعبارة أخرى اعتبروا قوة الملكة سلبياً بأنها مجرد قابلية العقل للتأثر بمشاعر وانفعالات خاصة . ومن ثم نزع الفلاسفة إلى تقسيم كل العمليات العقلية تقسيما تفصيليا بأرجاعها إلى ملكات خاصة مسببة لها .

(٢) موجز تاريخي :

ا ـــ أفلاطون : ـــ افترض أفلاطون أن للانسان ثلاث نفوس ـ أو بعبارة أخرى قسم النفس الأصلية إلى ثلاثة أجزاء . كل منها نفس ثانوية قائمة بذاتها ، تباشر وهى مستقلة نوعا من الأنواع الرئيسية الثلاثة للعمليات العقلية ـ لأن حقيقة التنازع بين أحوال النفس المتعددة تثبت إثباتا قاطعاً على حد قوله : أنها تتكون من ثلاثة عناصر مختلفة وهى الاستدلال القياسى أو الحكم ، والرغبة أو الشهوة ، والانتباه أو الأرادة . فهو على ذلك اعتبر أن الملكات ثلاث(١).

ب ـــ ارسطاليس : ـــ

رفض أرسطو تقسيم أفلاطون لأنه اعتبر النفس الواحدة الكاملة متركبة من ملكات خمس ـ الغذائية المتولية حفظ الجسد و إشباع حاجاته الضرورية ـ والشهوانية التي تسعى وراء الطيب السار وتبتذ الفاسد المؤلم ـ والادراكية الحسية المنوطة بأدراك الظواهر الطبيعية والمؤثرات الخارجية عن طريق الحس ـ والمحركة التى تشرف على حركات الجسد وسائر أعضائه ـ ثم العاقلة المفكرة التى تعقل وتفكر وتتصرف به . على أنه كان يسلم ضمنا بأن الله وهب الانسان قوة حيوية واحدة تحفظ كيان جسمه وعقله وهى النفس .

جـ ـــ الفلاسفة المدرسيون : ـــ

اتبع القديس توماس زعيم هذه المدرسة رأى ارسطو ، ولكنه تشدد فى بيان الفرق بين الشهوة الحسية التى يخضع الانسان لها رغم إرادته وليس له سلطان عليها ، والشهوة العاقلة الأرادية التى تعرف ما تريده وتفعله . وأشار كذلك بوجوب تميز الملكات عن بعضها ، لا بالعمل الذى تقوم به وحده ، وإنما بالعمل والمؤثر الخارجى الدافع لهذا العمل معا ، لأن العمل العقلى ماهو إلا نتيجة لارتباط العقل بالشيء الذي يدركه ـ وعدل التقسيم من جديد إلى

(١) راجع الفصل السادس عشر من الجمهورية *Plato : The Republic.*

الملكة الروحانية التى تشرف على العقل والبدن معاً ، والادراكية الحسية ، والادراكية العقلية المجردة عن الحس ، وملكة المعرفة ثم الشهوانية . وأضاف أتباعه ملكة النشاط العقلى النسبى ، وملكة إدراك العلاقات الكونية .

د — التقسيم الثلاثى : —

ظلت نظريات الفلاسفة الأقدمين الخاصة بالعمليات النفسية على ما هى عليه ، حتى جاء ديكارت بسيكولوجيته الفاعلية — سيكولوجية الادراك المباشر — التي تجعل الفرد المدرك الشاعر أصلا للحياة النفسية ذاتها ، وتعتبر أن العقل المدرك هو الادراك فى ذاته : واستلزم هذا الفرض المناقض لفروض سيكولوجية أرسطو الموضوعية (التى ترجع كل الظواهر العقلية إلى النفس أو الروح الألاهية لا إلى العقل) تغييراً فى تبعية الملكات للنفس وإلحاقها بالعقل . ومن ثم اعتبرت الملكات مجرد طرق خاصة للادراك العقلى ، أو هى العمليات الادراكية ذاتها . وشعر أتباع ديكارت إزاء هذا التغيير الجوهرى بحاجة إلى وضع تقسيم جديد للملكات العقلية . فارتأى مندلسون وتيتينس ، أن يكون التقسيم ثلاثيا — ملكة الادراك أو المعرفة ، وملكة الوجدان ، وملكة الارادة — لأن هذه القوى تمثل حالات الشعور النهائية المطلقة التى تنتهى اليها بالتحليل كل العمليات العقلية المعقدة . وأدمج (كانت) هذا الفرض فى نظريته التى تقول بأن كل القوى العقلية ترجع إلى أنواع ثلاثة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال ، وليست مشتقة من أصل واحد وهى المعرفة ، والشعور بالسرور والألم ، ثم الرغبة أو الارادة (١)

وفرق أتباعه بين الادراك الحسى والادراك العقلى المجرد عن الحس مستدركين بذلك ما أهمله ديكارت . ولكنهم لم يذكروا هذا الفرق فى نص النظرية ولا فى التقسيم . وهاملتون ذاته على شدة تدقيقه لم يفطن لهذا السهو — أما الملكة فقد عرفوها إيجابيا بأنها نوع خاص من الادراك المسبب للعمل العقلى — أيا كان نوعه — وسلبيا بأنها قابلية العقل للقيام بهذا العمل . ولكن هاملتون قصرها على النوع الأول مجاريا ليبنتز فى رأيه — ومع تسليمهم باستقلال الملكات كل عن الأخرى فانهم لم يعتبروها قوى مستقلة قائمة بذاتها ، بل عوامل خاضعة للعقل راجعين بذلك إلى فرض ارسطو (٢) .

هـ — تقسيم سبنسر الثنائى : —

---

(١) راجع مقدمة كتابه فى نقد الحكم (٢) راجع السيكولوجية التحليلية ص ٣٨ تأليف استوت

(1) *Kant : The Kritik of Judgment.* (2) *Stout : Analytic Psychology.*

نحا سبنسر فى دراسته للظواهر العقلية ناحية أخرى ، جاعلا الشعور (الاحساس) محور سيكولوجيته ، ولذلك قسم الملكات إلى طائفتين اثنتين أساسيتين ـ المشاعر والعلاقات الادراكية التى تربط هذه المشاعر المختلفة ، ولم يزد على هذا شيئاً فلم يتبع تقسيمه أحد الامبيركيه.

و ـــ المدرسة التجاريبية : ـــ

قلنا إن الأقدمين فرضوا مذهب الملكات المستقلة كوسيلة لتقسيم العمليات العقلية، ولكن (وولف) حاول أن يستخدمه فى تحليل القوى العقليـة وشرح عملياتها (١) فأعاد البحث فى العمليات العقلية كلها ، وصنفها وقسمها إلى عدد محدود من المجاميع، معتبراً كل مجموعة نتيجة لملكة خاصة ، على أساس أن هذه الملكات هي وحدها المسببة لكافة المظاهر العقلية ، وزاد فى عددها وأطلق على كل منها اسم الوظيفة التى تقوم بها . فصارت الذاكرة ملكة ، وكذلك التخيل والتأمل والملاحظة والارادة وغير ذلك ، كل منها ملـكة خاصة . وتوسع (لوك) فى التقسيم فافترض لكل عمل عقلى مهما كان بسيطا ملكة خاصة . واستغل (سيورز هاين) هذا التقسيم الجديد على مابه من مغالاة ، واستخدمه وسيلة لبناء علم فراسة الرأس (الفرنيولوجيا) من جديد ليكسبه صبغة فلسفية سيكولوجية قد تجعله مقبولا لدى العلماء ، وقسم الملكات من جديد إلى رئيسية وهى ملـكات الحس والشعور ـ (تتفرع الى ملكات دافعة للعمل وعواطف مبينة للانفعالات) وملكات عقلية (تتفرع الى الادراك الحسى والتأمل العقلى) وثانوية تشمل كل أنواع الادراك والارادة والانفعال والعمل . وقسمها من ناحية أخرى الى ملكات منحطة يشترك فيها الانسان والحيوان ، وأخرى راقية يتميز بها الانسان وحده (٢)

وقد رفض علماء النفس هذا التقسيم لأنه كما يقول (كولب) تقسيم جمالى وأخلاقى أكثر منه سيكولوجى .

وسار العلماء المتأخرون على هذه السـنة فلم يتركوا ظاهرة عقلية صعب عليهم تفسيرها وإدراك عملها وتحديد وظيفتها إلا وخلقـوا لها ملكة جديدة ، فأضاف (جالتون) الملكات الخلقية والملكة المميزة (المعدومة عنـد البلهاء والمعتوهين) وملكة التمثيل البصرى (المسببة للأحلام والرؤى والتهيآت) وملكة التصور العقلى (الحافظة للصور الشبكية العينية التى

---

(١) راجع كولب ـ حدود علم النفس ص ٢٣ـ٢٥

(1) Kulbe : Outlines of Psychology.

(٢) راجع وارد ـ مقال علم النفس والفرينولوجيا بدائرة المعارف البريطانية *Ward.*

يمتاز بها المهندسون والمعماريون والفنيون) (١) . وابتكر (فروبيل) ملكة الكلام (٢) .وأعاد (وليم جيمس) تقسيم ملكة الذاكرة الى ثلاث ملكات مستقلة وهى : ملكة الاستذكار (استقبال المؤثرات الخارجية عن طريق الحس وتكوين الروابط بين آثارها) والحافظة (ملكة حفظ الآثار التى تتركها المؤثرات فى العقل) والمرجعة أو الذاكرة (ملكة إرجاع المواقف الماضية وتذكرها كما حدثت عن طريق هذه الروابط) (٣)

وهكذا أصبح العقل فى نظر أتباع هذه المدرسة مجموعة قوى أو ملكات مستقلة تقوم كل منها بعملها من غير أى اشتراك أو تعاون مع الملكات الأخرى ، أو تكون لها وحدة عضوية ، كأعواد القش المتفرقة تجمعها الحزمة الواحدة (٤) . وبعبارة أخرى يكون العمل العقلى خليطا من عمليات مستقلة تختلف عن بعضها تمام الاختلاف وتقف جنبا لجنب منعزلة لايربطها رابط ولا تؤثر إحداها فى الأخرى . وفقدت صور العقل المتعددة وحدتها الحيوية التى نادى بها القدماء ، وتسامح بعضهم فى الرأى فسلم بأمكان قيام الملكة بعملها مستقلة أو مشتركة مع ملكات أخرى فى أعمال معقدة ، من غير أن يفقدها هذا التعاون فى العمل شيئا من استقلالها على مثال أعضاء الجسد ، ولذلك سموها أعضاء العقل . على أن القليل منهم تمسك بمبدء وحدة العقل . فالعالم (جال) كان يعتقد بوجود قوة واحدة (وهى العقل) تدرك وتتصرف وتشرف على عمل الملكات كما كان يقول ارسطو عن النفس . وقال (كالدول) الفيزيولوجى الامريكى بأن العقل واحد فى قوته كما هو فى مادته ، فهو يساعد الملكات ويرشدها ولو أنه لا يحتويها . (٥) وقنع (بين وصالى وسبنسر) باعتبار الملكة مجموعة أعمال عقلية ولم يتعمقوا فى البحث الى أكثر من هذا .

وهكذا تطورت فكرة الفلاسفة عن الملكات من مجرد قابلية العقل للقيام بعمل معين الى قوى فعالة بسيطة لايمكن تحليلها الى عناصر أبسط منها . (٦)

(٣) تحديد مراكز الملكات ومناطق عملها : —

---

(١) راجع كتاب السير فرانسيس جالتون – أبحاث في الملكات الانسانية ص ١٠٠

(٢) راجع كتاب تربية الانسان صحيفة ٧٠ *Froebel*

(٣) راجع وليم جيمس – أصول علم الجزء الثانى فصل الذاكرة

(٤) راجع صالى – العقل ص ٧١ *Sully*

(٥) راجع كتابه مبادىء علم النفس ص ١٦ *Caldwell*

(٦) راجع رسك – التربية التجريبية ص ٣٨ *Rusk : Experimental Education.*

تطور المذهب من مجرد الفرض الى حقيقة اقتنع هؤلاء الفلاسفة بوجودها ولم يكن ينقصهم فى مبدء الأمر إلا خطوة واحدة فى سبيل تحقيقها ، وهى تحديد مراكز الملكات فى المخ والجسد . وتقدمهم افلاطون فى هذا السبيل إذ جعل المخ مركزا للروح كما اعتبر ارسطو وفلاسفة الأمم القديمة القلب مركزا للحياة .

وجاء عصر التشريح فسهل عليهم معرفة الشيء الكثير عن وظائف المخ والأعصاب والمناطق العصبية المتعددة . واتسع أمامهم المجال للتقسيم بعد أن أثبت (هيبروفيلوس) . و (ايرسيس تراتوس) أن لكل منطقة من مناطق المخ وظيفة محدودة . فجعل جالينوس المناطق الوظيفية (مناطق الجهاز العصبي والبدن التى تقوم بوظيفة عقلية) ثلاث ، وزادها ابن رشد واحدة وأضاف ابن سينا الخامسة . أما من حيث توزيع هذه المناطق على الملكات فأول من وزع الملكات على مناطق الرأس ووصفها وصفا دقيقا هو (البرتوس ماجنوس) في أوائل القرن الثالث عشر الميلادى واختص المنطقة الوريدية بالحكم والوسطى بالخيال والخارجة بالذاكرة . وافترض جوردون أن القرن الخارجى للبطين الطولى يقوم بالاحساسات العادية . أما استقبال المؤثرات المعقدة والخيال فخاص بالثانى والحكم بالثالث والذاكرة بالرابع .

وظل هذا التخبط معمولا به رغم حملات فلاسفة القرن السابع عشر وقد أسس عليه (جال) علم فراسة الرأس ورسم على نموذج الرأس ٢٦ منطقة كل منها تمثل ملكة خاصة وزادها الأخان (فاولر) الى ٤٣ وأضاف علماء التشريح المتأخرون ملكات جديدة كل على حسب أهوائه . وهكذا عاش مذهب الملكات إلى اليوم تحت اسم علم فراسة الرأس .

(٤) خواص الملكات المرغومة

نسب الفلاسفة للملكات خواص ثانوية ، تتفرع من الخاصتين الأساسيتين وهما (القابلية والسببية) اللتين ذكرناهما آنفا . أهمها : ـ

١ ـ إن الملكة هبة طبيعية موروثه غير مكتسبة بالمران ولا التعلم (شأن كل الهبات الطبيعية) فمن وهبه الله ملكة الخيال كان شاعرا خياليا ، أو روائيا مبدعا . أو ملكة الذاكرة كان ذا ذاكرة جبارة تحفظ كل مايستقبله من المؤثرات أيا كان نوعها . وكذلك الشعوب تتميز كل منها بملكة خاصة قد لاتوجد فى سواها . فيقال إن هذا الشعب سريع التأثر بالموسيقى ، وذاك له إحساس دقيق بالجمال .

ومثاله مايقرره (جالتون) من أن البوشمان (أهالى جنوب أفريقيا) ، وكذلك الفرنسيين تقوى فيهم ملكة التخيل و إدراك البصريات ، و يقول (وليم جيمس) إن ملكة الحافظة وهي

الملكة الثانية من ملكات الذاكرة موروثة فلا تتغير إلا فى حالة المرض ، فمن ورثها قوية كانت ذاكرته على وجه العموم قوية ومن كانت فيه ضعيفة أو معدومة كان سريع النسيان .

٢ ـ يتبع هذا الفرض بأن الملكة قد تكون قوية أو متوسطة أو ضعيفة على وجه العموم فقوى الذاكرة يتذكر الوجوه كما يتذكر الاسماء والتواريخ وكل ما يمكن استخدام الذاكرة فيه.

٣ ـ ولكن الملكات مع هذا قابلة للتحسين بالتمرين فتقوى بالتمرين المناسب وتعمل بمنتهى الكفاية فى كل ظرف وتحت أى مؤثر .

٤ ـ كما أنها قد تضعف أو تضمحل تماما بالترك والاهمال أو تكمن وتقبع لفرصة ملائمة أو تخلى الطريق لملكات أخرى أقوى منها وأكثر فائدة (١)

٥ ـ وتمرين ملكة معينة يقويها من كل النواحى ، فتمرين الذاكرة بحفظ الشعر يقويها فى حفظ أى مادة أخرى . وكذلك تقوية إحدى ملكات الذاكرة الثلاث يقوى الملكات الباقية . وعلى هذا المنوال يمكن تقوية ملكة الخيال جملة . وقد قال علماء التربية فى القرن الماضي بأمكان تقوية ملكة الملاحظة . ونادوا بوجوب تدريب التلاميذ على نوع من أنواع الملاحظة . ويستشهد (السير أدامز) على هذا بأن (هودين) مرن نفسه وابنه معه على تذكر كل مايقع تحت نظرهما ولو عرضا بملاحظة معروضات واجهات الحوانيت ، وأمكنه بذلك أن يتذكر بسهولة حوالى خمسمائة شيء دفعة واحدة (٢)

٦ ـ وافترض بعض أنصار المدرسة الأمريكية أن تقوية ملكة واحدة قد يؤدى إلى تحسن ظاهر فى جملة ملكات وهذه نتيجة طبيعية لفرضهم الأصلى القائل بأن الملكات قد تتعاون معا فى القيام بالعمليات العقلية الراقية (٣) . وهذا الفرض الأخير هو الذى رما العلماء المحدثون إلى بحث الموضوع السيكولوجى المعروف باسم (انتقال التحسن الناتج عن تمرين ملكة واحدة الى ملكات أخرى)

(٥) أوجه الدفاع عن المذهب :

أثبت علم النفس الحديث فساد هذا المذهب ونادى ببطلانه كما سنبين فيما بعد . ولكن

---

(١) راجع توسون ـ الغريزة والذكاء والخلق ـ الفصل ١٤
Thomson : Instinct, Intelligence and Character.

(٢) راجع كتاب أدامز : السيكولوجية الهربارتية الفصل الخامس والسادس
Adams : Herbartian Psychology.

(٣) راجع مقال (وارد) بدائرة المعارف البريطانية

بعض العلماء يتسامح فى قبوله معدلا ولو على الأقل باعتباره طريقة للتقسيم لأن كل وسيلة لتبويب الأعمال العقلية ووضع كل ماتشابه منها فى مجموعة واحدة تغتفر ـ ما دام الغرض منها تحليل هذه العمليات ـ الى عناصرها الاولية ،وفى هذا يقول (ماهر) إن محاولة العلماء الحديثين الذين ساعدوا على هدم مذهب الملكات فى البحث عن عناصر العقل البسيطة هو فى الواقع رجوع إلى حظيرة المذهب (١) و يقول (صالى) إنه يسهل مأمورية التقسيم ولكن من العبث قبوله كوسيلة لدراسة العقل وتفسير عملياته (٢) وفريق آخر من العلماء يسلم بوحدة العقل ولكنه يسلم أيضا بوجود وظائف عقلية مختلفة بعضها أقوى فى الفرد الواحد من البعض الآخر ، مستدلين على ذلك بما يوجد من الفوارق الجوهرية بين عقلية الأطفال قبل أن يصلوا الى دور التعليم ، والتعليم الذى يطبعهم بطابع واحد يجعلهم نوعا ما متجانسين متقاربين . ولنمو الوظائف العقلية وظهورها فى الطفل فى أدوار مختلفة ، وفى انقسام العقل وتعدد الشخصية فى بعض حالات الجنون والاضطرابات العصبية ، ومن الشعور بالألم فى مناطق خاصة من المخ عند الاستمرار فى نوع واحد من العمل ، واضطراب العقل اضطرابا محدودا عند اختلال عصب خاص من أعصاب المخ . وأخيرا من إجماع علماء التشريح على تقسيم المخ إلى مناطق للنظر والسمع والحركة وغيرها

وسنتناول فى المقال الآتى ما كان لهذا المذهب من أثر خطير فى التعليم وكيف أثبت علم النفس التجريبى بطلانه من جميع الوجوه ؟

محمد مظهر سعيد

---

(١) راجع كتاب ماهر : علم النفس ص ٣٩ *Maher : Psychology.*

(٢) راجع كتاب صالى : حدود علم النفس ص ١١٥ *Sully : Outlines of Psychology.*

القلب المعنى

يا لهذا القلب البئيس المعنى ... لم يفق من هوى الحبيب القاسي

مذ أداروا سلافة الحب قدما ... ملأوا من دم الحشاشة كاسي

« رباعيات الخيام للنجفى »